

ظاهرة السيولة و رمز الماء في الشعر العربي

الملخص :

يتناول البحث ظاهرة السيولة و رمز الماء كمظهر من مظاهر الرؤية العربية و محاولة اكتشاف حضورها في النص الشعري من خلال عتبات اقتصرت على الشعر القديم كإرهاص في حاجة إلى مزيد من التعمق.

١ . خاتمة بن ماهه

قسم اللغة العربية
كلية الآداب
و العلوم الإنسانية و الإجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

تتأني شعرية الرّمز و الترميز من تملك الظاهرة الجمالية في وعيها ذاتيا، و الوعي الذاتي هو وعي للذات داخل إطار الإنتماء الحضاري و المعرفي الذي تتجذر الرؤيا في أعماقه. لذا فإن كل توسل لغوي خارج إطار البنية الفكرية الحضارية التي ينتمي إليها المبدع، يعتبر لعبا مجانيا باللغة، لا يمكن أن يحقق أدنى وظيفة جمالية. كما لا يمكن تصور بنية فكرية تقف موقفا حياديا حيال عملية الإبداع، التي هي في جوهرها المعادل الإنفعالي و الجمالي للفكر. و من ثم فإن تعامل المبدع مع الرّموز التخيلية، غير المنسجمة مع المنطق الرؤيوي، يجعل هذه الرموز غير متواشجة مع السياق، و غير مؤتلفة في أبعادها الإيحائية و الجمالية. و منه ما نقرأه في تجارب بعض الشعراء العرب المعاصرين، نتيجة تعاملهم مع القاموس الميثولوجي اليوناني، مما عاد على التجربة العربية المعاصرة بكثير من الإحباط، و أحدث شروخا بيّنة في أساليب الكتابة، و عدم انسجام مع الرؤية العربية بأبعادها الإبداعية و الفكرية و الحضارية، و التي تحمل الدلالة الرّمزية رصيدا من إشعاعاتها، و تراكما للتغيرات التاريخية التي تطرأ على حقولها المعرفية المختلفة، مما يجعل وظيفة الرمز ذات إشعاع دلالي متبدل و متغير بشكل مستمر.

و يعتبر رمز الماء من أكثر الرموز حضورا في الشعر العربي، و كأنه آلة ضخمة شارك في صنعها كثيرون بدء من امرئ القيس، و مرورا بذي الرمة ووصولا إلى بدر شاكر السياب. و لم يكن حضور هذا الرمز في الشعر العربي إعتباطيا و لا انزياحا من حقول معرفية أخرى، و لكنه إنبثاق أصيل من العقلية العربية، التي وسمها ضرب من الصراع فرضته طبيعة الأرض في شبه الجزيرة العربية، و أملت ظروف العيش القاسية، و اضطلع به الصراع بين الجذب و الخصوبة، الشيء الذي ولد عند الإنسان العربي توقا إلى الماء و ترقبا للغيث ملازم له و حاضر في رؤياه العميقة، في الشكل صراع بين الجذب و الماء و سعي دائم لتجاوز القحط و الوقوف على النماء، و إنتصار للخصب على اللّمار، و للحياة على الموت و الإنتثار. مما أكسب الشعر العربي سيولة فائضة في كل تجاربه، حتى تلك المتعلقة بعواطفه الذاتية و التي تطلعا بها قصائد الغزل كان يعبر عن حسّ الكبح و ما يخلفه في الروح من الشعور بالإحتجاز في صورة الطيور الحائمة حول الماء و الممنوعة في الوقت نفسه من الورد إليه يقول قيس لبنى (1) :

و ما الحائمات حمن يوما ليلة

على الماء يفتشين العصي حوان

عوافي لا يصدر عنه لوجهه
و لا هن من برد الحياض دوان
يرين حباب الماء و الموت دونه
فهن لأصوات السقاة روان
بأجهد مني حرّ شوق و لوعة
عليك، و لكن العدو عدائي

و منه هذه الصورة الغزلة البسيطة و العميقة و المجنزة في الشعور للشاعر العذري كثير عزة مصورا شدة توقه إلى شيء لا يخضع الحصول عليه لإرادته، توق إلى الحياة و انتصار لها ضد الجندب و الحرمان.

و إني و تهيامي بعزة بعدها
تخلّيت مما بيننا و تخلّت
لكا لمرتجى ظل الغمامة كلما
تبوأ منها للمقبل اضمحلت
كأني وإياها سحابة ممحل

رجاها، فلما جاوزته استهلّت (2)

و لعلنا نقف على إنسجام بين هذه الرؤيا المركوزة في أعماق الإنسان العربي و ما يقّمه القرآن الكريم عن " مبتدأ وجود الإنسان على سطح الأرض على أنه خروج من الجنة، فإنما ذلك بمقتضى قدرة العربي على التصور و الفهم " فقد أنزل عليهم قرآنا عربيا مبينا " إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون " (3). و هذا له دلالاته على أن العربي قد تهيأ على مستوى بنيته الفكرية لتقبل الجديد و لفهم هذا الجديد و " هكذا نجد أن القرابة بين النص القرآني و النص الشعري ليست قرابة تداعيات أو قرابة صور فقط بل هي قرابة بنية أيضا ... "

و إذ يدرك العربي أهمية الماء، يعرف " معنى الخروج و معاناته في الصحراء بمواجهة القحط من أثر الخروج من جنات شبه الجزيرة العربية و أنهارها إلى الصحراء و حرّاتها " (4). يدرك بعمق مأساة خروج آدم و زوجه من الجنة. و الجنة في القرآن الكريم " فيها أنهر من ماء غير آس و أنهر من لبن لم يتغيّر طعمه. و أنهر من خمر لذة للشاربين و أنهر من عسل مصفى و لهم فيها من كلّ الثمرات " (5).

و الدلالة في كل هذا تبين موقف الإنسان العربي و رؤيته للوجود عبر هذا التّعيم المائي الذي نسبت له كلّ الحياة " و جعلنا من الماء كلّ شيء حيا " و تجدر في أعماقه إذ حول عنه إلى الحرّات و الصّحاري عقب الانقلاب المناخي كصورة أخراة تتجند عن الخروج الأول من مجال الخصوبة و السيولة و الثمرات و " قلنا اهبطوا " فالفعل اهبطوا يشير إلى منزلة الجنة و منزلة المال

ثم يهيب القرآن به أن يدرك بعمق مأساة الخروج.

نفهم من هذا أن الدعوة إلى التّعيم المائي الذي يوعد به المؤمنون في الجنة، كنّف حسن الخصوبة عند الشاعر العربي فنّارت قصيبتها على أشكال الطلل و الندى حتى نكاد أن نقول: إن ثورة أبي نواس على الوقوف على الأطلال متمثلة في بيته
عاج الشقي على رسم يسائله ** و عجت أسأل عن خمّارة البلد.

هي تكثيف لتلك الرؤيا، و ضغط لإختبائها رغم أنها رانية على النص الشعري العربي و تحضر في أشد المناسبات إبتعادا عن الإنشغال بالغيث أو طلب الماء كما في مدح ذي الرمة للخليفة الأموي " عبد الملك بن مروان " .

مأبال عينك منها الماء ينكسب ** كأنه من كلى مفرية سرب
لتستسلم للسيولة و النصارة كبنية مهيمنة على بقية البنى. و قد عبر أبوتمام عن هذه الهيمنة في هذا المجاز الأسر :

مطر يذوب الصحو منه ** و صحر يكاد من النصارة يطر(6)
بحيث يشكل التكرار للفظه مطر ظاهرة أسلوبية لها دلالتها، إذ يعطف الذوبان على " المبتدأ " مطر فيكون الصحو الذائب مطرا ثانيا و يصبح الصحو الثاني من شدة النصارة و الجمال مطرا مرة أخراة " . و قد تحركت للصورة من مشهد المطر، و الإستهلال بالإسم في عرف الأسلوبين يحيل على الإستقرار و استمرارية المشهد، و انتهاء الصورة بالمطر إلحاح على التثبيت بالسيولة و الخصوبة مما أكسب الصورة شعرية فائضة وزاد من كثافتها إحلال الضد على الضد لينيره دلاليا في ترأسل يعيث بمعطيات المنطق و يخلق وحدة الأثر بين أطراف متباينة لكن يغمرها الماء حتى الإرتواء المتجدد. و الفعل المضارع يحيل على الحدث و التجدد. و حتى في البيداء القاحلة، و تحت لفح الهاجرة يتراءى الماء مهيمن على الرؤيا في قول الفرزدق:

و يبداء تغتال المطي قطعتها

بركاب هول ليس بالعاجز الوغل

إذا الأرض سنكتها الهواجر وارتدت

ملاء سموم لم يستين بالغزل

و كان الذي يبدو لنا من سراها

فضول سيول البحر من مائه الضحل

و يدعو القطا فيها فيجيبه

توائم أطفال من السبب المحل

دوارج أخلفن الشكير، كأنما

جرى في مآقيها مراود من كحل

و تتمثل سيولة النص في مشاهد الموزعة على صورته، في تشبيه السراب بفضول سيول البحر و في وصفه لمشهد حيّ تحمل فيه القطا الماء و تفرغه في حواصل الفراخ. كما أن الفعل جرى فعل مائي و المآقي حيث تجري مراود الكحل تحمل بعضا من دلالة العين الجارية و السقى و الإستقراغ محمولات دالة على الإنسياب و السيولة و رائحة الطمي، التي تطفح شعرية في النص العربي مهما أوغل في رؤياه الصحراوية و كان الجاحظ يبطن مجازة النقدي القائل " شعر لا ماء فيه " بهذا التبطين المائي للرؤيا حتى غدت عين الشاعر العربي كعين موصوفة في قول ذي الرمة:

" ما بال عينك منها الماء ينكسب " .

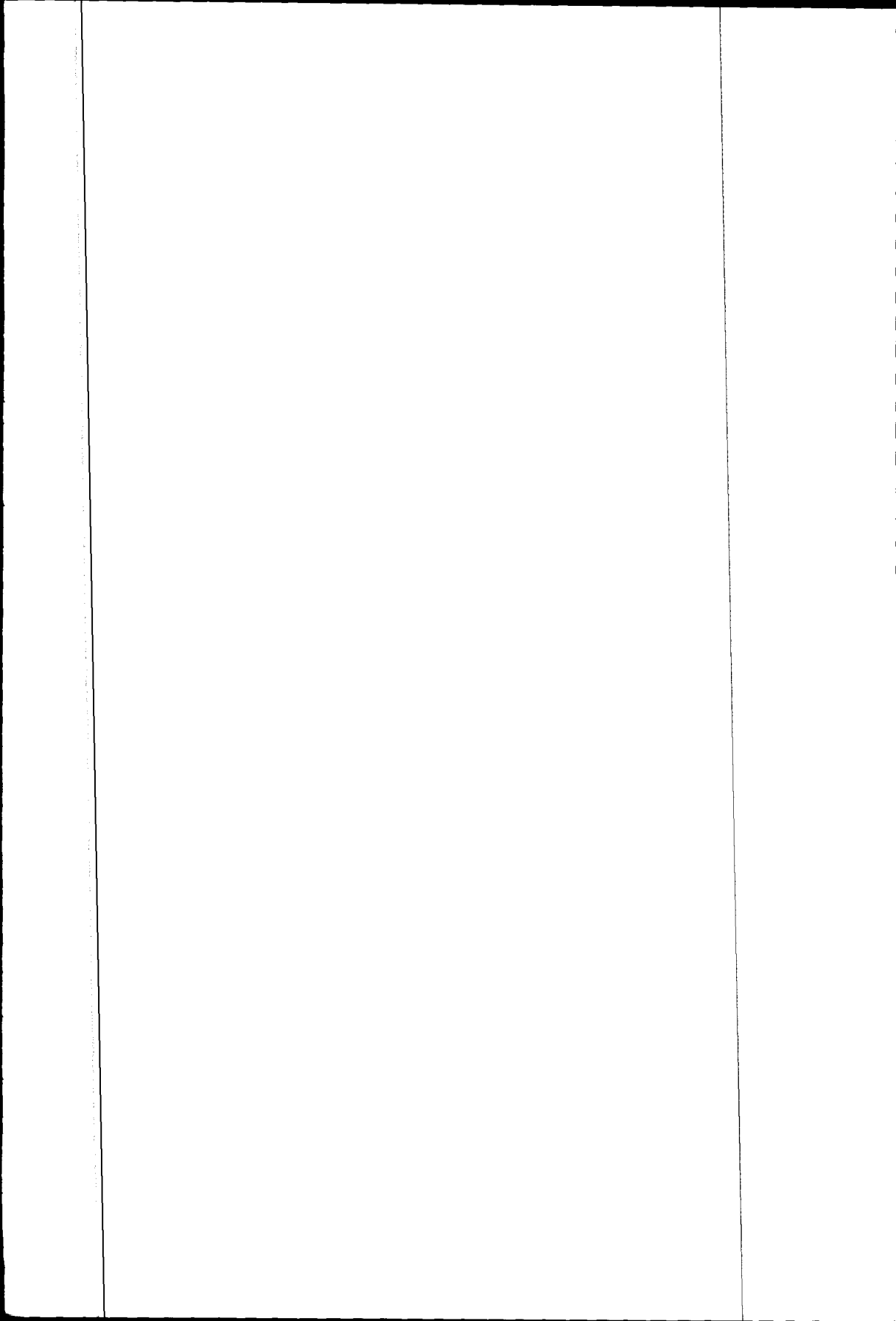
و لعل شعرية وصف الأخطل للثور الوحشي ترجع إلى أن رؤية الشاعر كانت من خلال ليلة ممطرة و من تلك القصيدة قوله (7) :

يجول ليلته و العين تضربه ** منها بغيب أخش الرعد نيار
إنا أراد بها التغميض أرقه ** سيل يذب بهدم الثرب هوّار
كانه إذا أضاء البرق بهجته ** في أصفهانية أو مصطلى نار
أما الدعاء للحبيب بالسقيا فقد أنجب أشعارا عربية جميلة هي الربيع. و الخصب و النماء
و هي التآلق و التهلل و اهتزاز الرّوابي و الأنغام ليمرره (كثير) على منازل الحبيبة منزلا بعد
منزل يسقيها و يعلمها و يغاويها بزخاته وونق سيله.
يقول كثير عزة (8):

و سيل أكناف المرائب غدوة
و سيل منه ضاحك و عواقب
و منه بصخر المحو زرق غمامه
له سيل و اقورّ منه الغفائر

و طبق من نحو التّخيل كأنه
باليل لما خلف النّخل ذامر
و مرّ فاروى ينبعا فجنوبه
و قد حيّد فيه حيد فبعائر

و في تنكير الشاعر لكلمة سيل تعميم و ثورة على ما تعرض إليه المكان من جذب. و
تكرار سيل و إطلاقها على التنكير امعان في الثورة على الجذب و الرّدى. و السيلان فعل مائي
مفعم بالخير و سبيل إلى حلول الأحباب و إقامتهم، مادام لهم هذا الخير العميم. فتبیت نفس
الشاعر سعيدة مغتبطة، و لعل ذلك ما يرنو إليه الشاعر العربي و يتوسل إليه في أشعاره و
إن تباينت الوسائل و اختلفت الأساليب الفنية بين القديم و الجديد.
و أخيرا، أمل أن تجد هذه التّبضات طريقها إلى الإبلاغ ثم التأثير، رغم أن التعبير عن
المراد يتطلب تعميقا أكثر.



المواضع :

- 1 - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ج 8 طبعة بولاف، دار الكتب ص 123
- 2 - ديوان كثير عزة ، د. إحسان عباس دار الثقافة بيروت 1319 هـ ص 377 و ما

بعدها

- 3 - القرآن الكريم (2-12)

- 4 - أفلاطون طيماوس، ترجمة فؤاد جرجي بربارة منشورات وزارة الثقافة، دمشق

1968 ص 191

- 5 - القرآن الكريم (2-35-36)

- 6 - ديوان أبي تمام

- 7 - شرح ديوان الأخطل الثعلبي إيليا سليم الحاوي طبعة دار الثقافة بيروت ص 603

- 8 - ديوان كثير عزة د. إحسان عباس دار الثقافة ص 373 و ما بعدها